PSYCHOLOGY AND EDUCATION (2024) 61(8): 333-343

ISSN:1553-6939

Sufi Women and Their Efforts in Building the Identity of Middle Maghreb Society

Dr. Salhi Ouidad[1]

[1]University Echahid Hamma Lakhdar - El Oued (Algeria).

The E-mail Author: salhi-ouidad@univ-eloued.dz

Received: 02/2024 **Published: 08/2024**

Abstract:

The article deals with the efforts of Sufi women in building the religious, social, and cultural identity in the society of the Middle Maghreb, indicating the impact of Sufi women and their contributions to the development of Sufi thought, and its spread in the society of the Middle Maghreb.

Accordingly , I raise the problemof: What are the efforts of Sufi women in building religious, social and cultural identity? What is its impact on the development of the Sufi thought of the Man of the Middle Maghreb?

The study concluded with several results, the most important of which are: that Sufi women contributed significantly to building the identity of the Middle Maghreb man, through the transfer of spiritual and religious knowledge, with the aim of educating successive generations, by creating clerks and corners, which in turn were places for learning and meditation, memorizing the Holy Quran, and the Holy Hadith. They also had a role in promoting Islamic knowledge and values, and strengthening social ties, through spiritual leadership, and social support. Sufi women have contributed significantly to building the cultural, religious, and social mentality of society, through the dissemination of Sufi values, and the promotion of spiritual understanding and true and deep faith.

Keywords: women, Sufism, Middle Maghreb, angles, religious identity, community mentality.

المرأة المتصوفة وجهودها في بناء هوية مجتمع المغرب الأوسط

الدكتورة وداد صالحي[1]

[1]جامعة حمه لخضر الوادي (الجزائر).

ملخص:

يعالج المقال جهود المرأة المتصوفة في بناء الهوية الدينية، والاجتماعية، والثقافية بمجتمع المغرب الأوسط، مبينا أثر النساء المتصوفات وإسهاماتهنّ في تطور الفكر الصوفي، وانتشاره في مجتمع بلاد المغرب الاوسط.

بناء على ذلك أطرح الإشكالية المتمثلة في : ما جهود المرأة المتصوفة في بناء الهوية الدينية والاجتماعية والثقافية ؟ وما أثرها في تطور الفكر الصوفي لإنسان المغرب الأوسط؟

خلصت الدراسة إلى نتائج عدة نذكر أهمها: أن المرأة المتصوفة ساهمت بشكل كبير في بناء هوية إنسان المغرب الأوسط، من خلال نقل المعرفة الروحية، والدينية، قصد تعليم الأجيال المتلاحقة، بإنشاء الكتاتيب، والزوايا التي كانت بدورها أماكن للتعلم والتأمل، وحفظ القرآن الكريم، والحديث الشريف، كما كان لها الدور في تعزيز المعارف، والقيم الإسلامية، وتوطيد الروابط الاجتماعية، من خلال القيادة الروحية، والدعم الاجتماعي، فقد أسهمت المرأة المتصوفة بشكل كبير في بناء ذهنية المجتمع الثقافية والدينية، والاجتماعية، من خلال نشر القيم الصوفية، وتعزيز الفهم الروحي والإيمان الصحيح والعميق.

الكلمات المفتاحية: المرأة، التصوف، المغرب الأوسط، الزوايا، الهوية الدينية، ذهنية المجتمع.

مقدمة

إن المتتبع لتاريخ التصوّف[1] يجده مرتبطا بوجود الإنسان على وجه البسيطة, والذي كان دائم التطلع إلى معرفة سر الأمور الغيبية، واستطلاع عالم ما وراء الطبيعة , بل السعي الحثيث إلى الاتصال بهذا العالم عن طريق الوسيلة التي يراها تلبي طموحاته ورغباته, ولنا المثل السامي في ما كان يميل إليه الرسول - صلّى الله عليه وسلّم- من العزلة و الخلوة و التأمل في ملكوت الخالق قبل بعثته، لنقارنها بأحوال الزهّاد، والصالحين من العباد، الذين عرفوا بمسمى الصوفية، وهو الدليل الذي لا يدعو مجالا للشك عن حب البشر للخلوة والتأمل في الكون الشاسع، والبحث عن الحقائق التي يراها مُغيبة عنه، ساعيا الى كشف أسرارها.

[1]- التصوف: وردت عدة تعريفات واشتقاقات لغوية لكلمة التصوف فعند ابن خلدون أن أصل الكلمة من الصوف، وسموا بالصوفية للبسهم الصوف، ويقال سموا صوفية لقرب أوصافهم من أوصاف أهل الصفة الذين كانوا على عهد الرسول –صلى الله عليه وسلم-. ينظر: ابن خلدون: المقدمة، ص 462. ينظر أيضا: ابن منظور: لسان العرب، مادة صوف، دار صادر، (د، ط)، بيروت، (د، س)، مج8، ص 306. ينظر أيضا: السهر وردي: عوارف المعارف، دار الكتاب العربي، ط1، بيروت، 1966، ص 84.

1- الدور الإصلاحي للمرأة

تعد المسائل والنوازل التي حلت بالمجتمع سببا كافيا لوجود التصوف كظاهرة اجتماعية حيث برز بصورة ملموسة في أواخر القرن الثاني للهجرة، واستمر في الانتشار والتأثير في المجتمع [2].

ومن أسباب ظهور التصوف النسائي، هو وجود اختلال في التوازن الاقتصادي والاجتماعي، بظهور الطبقية الاجتماعية وتفشي الترف والبذخ جراء الثراء عند فئة معينة من الناس، كالسلطة الحاكمة والتجار والأعيان؛ أما عامة الناس ففيهم الفئة الغالبة فقراء، وشوهد بوضوح في العديد من حواضر المغرب الأوسط إقبال الناس على الدنيا والانغماس في ملذاتها [3]، فنشأ نشاط معاكس تماما لهذه الظاهرة وهو التصوف[4]، ونجد نشاطا كبيرا للمتصوفات في طبنة[5] والمسيلة وقلعة بني حماد[6] وورجلان[7] .

ولكن استمرار هذه الظاهرة في نشاطاتها الاجتماعية الإصلاحية، لوحظ أثرها على مجتمع المغرب الأوسط حتى في زمن الموحدين وما بعده بقوة أكبر، حيث كانت حاضرة بجاية وتلمسان ممن احتضنت أكبر عدد من المتصوفين والمتصوفات، وذلك لكونهما طرق عبور تجارية وثقافية فكرية، فكان العامل الحضاري له التأثير الأكبر على المتصوفات ونشاطهن، وهذا ما يؤدي إلى دخول مجموعة من سلوكات وأنماط من المعاملات وبعض الأفكار التي انتقلت مع الوافدين إلى تلك الحواضر من طلبة العلم والرزق.

ولهذا ظهرت المتصوفات اللواتي جئن بأفكارهن الإصلاحية الداعية إلى رجوع النساء إلى البساطة في العيش والزهد في الدنيا وملذاتها، وانتهجت المتصوفات طريقا إلى كيفية

---

[2] - منال عبد المنعم جاد الله: التصوف في مصر والمغرب، منشأة المعارف، (د، ط)، الإسكندرية، 1997، ص 120 121.

[3] - ابن خلدون: المقدمة، ص463.

[4]- نفسه، ص 462.

[5] - طبنة: وهي مدينة الزاب، فتحها موسى بن نصير، تتمتع بكثرة المياه والزروع. ينظر: ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج4، 21. ينظر أيضا: ابن حوقل: المصدر السابق 85. ينظر أيضا: الإدريسي: المصدر السابق، 263.

[6] - قلعة بني حماد: أسسها حماد بن بلكين بن زيري الصنهاجي، إلى الشمال من مدينة المسيلة سنة 398هـ/ 1007-1008م). ينظر: الإدريسي(ت560هـ/1165م): نزهة المشتاق، ص 109. ينظر أيضا: الغبريني: عنوان الدراية، ص 140.

[7] -ورجلان: تزهو وركلا بجامعها الكبير الذي كان مقرا للعلم والتشاور، ومولدا للعلماء والفقهاء، ولعب دورا كبيرا خلال العهد الإباضي الموحدي الذي كان ذا صلة بالأندلس من خلال تجارة الرقيق والذهب المجلوبين من السودان الغربي، ومن بين علمائها الفقيه أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم الورجلاني (500-570هـ/ 1106- 1174م). انظر: أبا العباس أحمد بن سعيد الدرجيني(670هـ/ 1271م): طبقات المشايخ بالمغرب، تح: إبراهيم طلاي، مطبعة البعث، قسنطينة، 1974، ج 2، ص 315. ينظر: الملحق رقم 6.

انتزاع حب الدنيا من قلب الإنسان[8] إلى السمو الروحاني للإنسان، والاستقرار النفسي للذات البشرية بالتخلص من الخطايا والمعاصي للوصول إلى الأخلاق الفاضلة، وكسب السعادة في الدنيا، والجنة في الآخرة[9].

ومن بين المتصوفات نذكر المتصوفة عائشة بنت الفقيه أحمد بن الحسن المديوني[10]، التي كانت من الصالحات، ألفت مجموعة من الأدعية قد اختارتها[11]، ولها قوة في تفسير الرؤيا[12]، مما سمح لها بالتأثير على النساء اللائي يقصدنها، فتعظهنّ وتساعدهنّ على مجاهدة النفس، وترشدهنّ إلى طريق الصلاح والخلاص .

ونجد الصالحة فاطمة بنت العالم التاجر أبي زيد النجار وزوجة أبي عبد الله محمد بن مرزوق الجد الأكبر الخطيب[13]، والمتصوفة عائشة بنت الفقيه الأكحل، من خيار المثقفات[14]، وبنت أبي عبد الله الكتاني كانت من الصالحات، زاهدة ورعة، وملازمة للعبادة والصالحة زينب بنت الشيخ الصالح أبي إسحاق إبراهيم بن محمد الدلايلي، أحد الصلحاء ومما عرف عن زينب أنها من بيت علم وجاه[15].

2- الدور العلاجي للمرأة

من أسباب ظهور المرأة المتصوفة المعالجة هو الإلحاح الاجتماعي الشديد الذي يقوده العرف والشرع، وذلك من خلال رفض بعض المتصوفة من الرجال علاج النساء المريضات مثل: أبي مدين شعيب الأنصاري[16] وغيره، وممن عالجوهنّ كانوا يتلمسون

---

[8]- الغبريني: عنوان الدراية، ص ص ص80، 75، 60.

[9] - الطاهر بونابي: التصوف في الجزائر، ص 100.

[10] - أحمد بن الحسن المديوني: هو جد الإمام ابن مرزوق لأمه، وهو قاضي تلمسان، كان فقيها ومحدثا صالحا وقاضيا عادلا، وكان معمرا . توفي سنة ثمان وستين وسبعمائة للهجرة. ينظر: أحمد بابا التنبكتي: المصدر السابق، ص 105.

[11] - أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الشريف المديوني التلمساني (ابن مريم): المصدر السابق، ص 212. ينظر أيضا: أحمد بابا التنبكتي: المصدر السابق، ص140.

[12] - ابن مريم: المصدر السابق، ص ص 212، 213.

[13] - ابن مرزوق: المناقب المرزوقية، ص ص 8، 9. وللإطلاع أكثر ينظر: عبد العزيز فيلالي: المرجع السابق، ج2، ص355.

[14] - عبد العزيز فيلالي: تلمسان في العهد الزياني، ج2، ص355.

[15]-ابن مرزوق: المناقب المرزوقية، ص149.

[16] - أبو مدين شعيب الأنصاري: هو ولي صالح أصله من نواحي اشبيلية بالأندلس، سكن مدينة بجاية ثم استقر في مدينة تلمسان، واتبع طريق الزهد والتصوف، وتوفي بقرية العباد سنة (594ه/1198م).ينظر: أبو مدين شعيب: الجواهر الحسان في نظم أولياء تلمسان، تح: عبد الحميد حاجيات، الشركة الوطنية لنشر والتوزيع، (د، ط)، الجزائر، 1974، ص ص 24، 23.

صدور النساء وبطونهنّ، ويتفلون عليهنّ، وهذا ما شوهد من طرف بعض الفقهاء المجاورين للمتصوف الزاهد أبي يعزى يلنور[17].

صور لنا عبد الكريم التميمي جلسات علاجية لنساء عليلات في حضور بعض الفقهاء، حيث قال: " وقالت لي جماعة من الفقهاء المجاورين لأبي يعزى، نشاهده يلمس صدور النساء، وبطونهن ويتفل عليهنّ فيبرأن، ونحن نرى أن لمسهنّ حرام، فإن نحن تكلمنا في هذا هلكنا، وإن سكتنا تحيرنا..."[18]، فلمس النساء الأجنبيات فيه شبهة ولو كنّ عليلات.

ولهذا كان لزاما على النساء المتصوفات أن يلبسن لباس التطبيب الروحاني[19]، وإن فشل كل من الطبيبة والكهانة في علاج بعض الأمراض النفسية والبدنية المستعصية آنذاك كان بسبب انتشار الأمراض والأوبئة القاتلة، التي عمت كامل أرجاء المدن بدون استثناء، ومست جميع أفراد المجتمع المغربي عوامه وأشرافه، والتي كانت لا تعالج وخاصة في البوادي[20] إلا بما توارثه الأبناء عن آبائهم وأجدادهم من أنواع التطبيب الذي لا فائدة تذكر منه. فكان لزاما عليهم في هذه الحالة أن يتوجه المرضى والموبوؤون إلى الوليات والأولياء الصالحين[21] أمواتا كانوا أو أحياء، ليستشفوا ببركاتهم وبدعواتهم أو تراب قبورهم حفاظا منهم على سلامة أجسامهم وأرواحهم[22].

وفي هذا الصدد تقدم لنا كتب سير الصالحين صورا كثيرة على هذا النوع، يظهر من خلالها الولي بمثابة "الطبيب العام" لكل أنواع الأمراض من الجروح، والقروح والأوبئة والإصابات مهما اختلفت، غير أنه ونظرا لكثرة الأولياء وتنوع الأمراض، نشأ نوع من التخصص في قدرات الأولياء على الإتيان بكرامات من أنواع معينة[23].

---

[17] - أبو يعزى يلنور: وليصالح، ولد سنة (488هـ/ 1095م) بأغمات، جنوب مراكش، عاش أكثر من مائة سنة، يتكلم البربرية أكثر من أي لهجة أخرى. ينظر: ابن الزيات: المصدر السابق، ص ص 214، 213.

[18] - أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم التميمي (603هـ أو 604هـ/ 1206 أو 1207 م): المستفاد في مناقب العباد بمدينة فاس وما يليها من البلاد، تح: محمد الشريف، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة عبد الملك السعدي بتطوان، مطبعة طوب بريس، ط1، الرباط، 2002، القسم2، ص 37. وينظر: ابن الزيات (التادلي): التشوف، ص323. وينظر أيضا: المرجع السابق، ج2، ص390.

[19] - نبيلة عبد الشكور: المرجع السابق، ص 402.

[20] - ابن رشد: الكليات في الطب، منشورات مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط2، 2008، ص ص 237، 238.

[21] - ابن الزيات: التشوف، ص ص 119، 202.

[22] - ابن قنفذ: انس الفقير وعز الحقير، ص 31.

[23] - ابن الزيات: التشوف، ص 421.

ولم يقتصر الولي على إبراء العاهات الظاهرية، وإنما تعداها إلى ممارسة وظيفة الطب النفسي(الروحاني)، في مجتمع عانى أهله كثيرا من الاضطراب السياسي من حروب وغيرها، واضطرابات طبيعية مثل الأمراض والأوبئة [24].

ولا عجب في أن الولي كان يتمتع بقدرة الخوارق على التحكم في جميع القوى الظاهرية، والولي من هذا المنظور لم تكن ثقة الناس به وبوصفاته الطبية غير ذي عبرة. إذ غالبا ما كان المريض يعقد النية مسبقا على أنه سيجد الشفاء عند الولي أو في ضريحه فيكون الشفاء[25].

وأورد ابن الزيات فقال" ... يا بني لعل الناس إنما ينتفعون بحسن نياتهم، فكيف ينال العجب أحدا؟" [26]، وربما وجده فعلا مثل ضريح لالة رؤيا التي كانت تشفي داء الصرع عند الأطفال[27]، ولكن لكونها ذات ارتباط وثيق بالشعور الباطني لدى الإنسان، ذلك الشعور الذي ينمو كلما انعدمت الحيلة أمام المصاب أو الأهوال ... وهذا يعني أن المجتمع المغربي هو الذي جعل من الوليات طبيبات، ومن الأولياء الصالحين أطباء واتخذ من أضرحة العباد والزهاد مزارا، لطلب الاستشفاء، ولم يقتصر التصوف والزهد على الرجال أنفسهم، بل تعدى ذلك إلى بروز فئة من النساء المتصوفات.

وإن تفسير الرؤيا جانب مؤثر على نساء المغرب الأوسط، ومن خلال تفسير الرؤيا تتشكل بيئة خصبة وممهدة لتأثير المتصوفات على النساء، فيعضن، ويوجهن، ويعالجن حالات نفسية عديدة، مثل الولية الصالحة عائشة بنت الفقيه أحمد بن الحسن المديوني التي كانت تفسر الرؤيا، وهذه المهارة اكتسبتها من كثرة مطالعة كتب الفن[28]، فكانت تبث أفكارها الداعية للزهد والرجوع إلى تعاليم الإسلام ببساطتها[29].

3- الدور الثقافي للمتصوفة

يعتبر انتشار التصوف كحد فاصل عن تأثير المعتقدات الوثنية على البربر، بالإضافة إلى ما شهده النسيج الاجتماعي من انحراف عن العقيدة الإسلامية[30]، واتباع المرأة بالمغرب الأوسط طريق التصوف وتياراته ومناهجه، وهذا من تأثير مخرجات البيوتات العلمية، حيث

[24] - ابن مرزوق المناقب المرزوقية، ص 248.
[25] - ابن الزيات: التشوف، ص 202.
[26] - نفسه، ص 202.
[27] - نبيلة عبد الشكور: المرجع السابق، ص ص 359، 358.
[28] - ابن مريم: المصدر السابق، ص 212.
[29]- عبد المنعم القاسمي الحسني: أعلام التصوف في الجزائر من البدايات إلى غاية الحرب العالمية الأولى، دار الخليل القاسمي، الجزائر، ط1، 2006، ص25.
[30]- الطاهر بونابي: التصوف في الجزائر، ص46.

يذكر لنا صاحب المناقب مجموعة من النساء الصالحات اللائي كن زوجات لوالد ابن مرزوق الخطيب، واعتمد في ذلك على المصاهرة دون ذكر أسمائهن[31].

فكان تأثير المتصوفة أو بمعنى أصح البيوتات على السياسة العامة للبلاد واضحا من خلال انتقال السلطة الحاكمة في دولة الموحدين إلى سياسة اللين ومحاولات الاحتواء، لأن ولاء المتصوفة للموحدين يعني بالضرورة ولاء العامة من الشعب، وهذا يؤدي إلى استقرار الوضع العام للدولة[32]، فالاضطرابات السياسية تؤدي إلى زيادة في انتشار التصوف، لأن الناس يدخل إلى قلوبهم اليأس ويعم الخوف والقلق، فيرتمون بين ذراعي المتصوفة ابتغاء السكينة والتخلص من الخوف، وبعث الأمل في نفوسهم[33].

4ـ دور المتصوفات في نشر الثقافة والعلوم

كان النساء المتصوفات يجالسن الفقهاء والعلماء، ويرحلن في طلب العلم مثل مؤمنة التلمسانية التي سافرت إلى فاس، وجالست كبار الفقهاء، ووصلت إلى درجة مناقشتهم في عدة مسائل فقهية وشرعية[34].

روى لنا ابن قنفذ ما شاهده منها فقال: "ورأيت منهم بفاس المرأة الصالحة مؤمنة التلمسانية، وتبركت بها ومازالت على ما تقرر عندي، تخصني بالدعاء في ظهر الغيب، وكان قاضي الجماعة بفاس، أبو عبد الله المقري -رحمه الله- يزورها ويسعى في قضاء حوائجها، وكانت على زهد وتقشف وعبادة وورع لا تخالط أحدا، وكان الشيخ الصالح علي بن عبد الوهاب يكتب لها لوحها يبادر به"[35]، ونزول جماعة من العجائز عند ابن مرزوق، فقام بضيافتهن وجالسهن وتحدث إليهن، وكن نساء صالحات[36]، والملاحظ على أن الأغلب كانت هذه الجلسات تدور مناقشاتها حول ما تعلمنه من علوم دينية ومعارف علمية، ومناقشة بعض القضايا الفقهية .

ونظرا للوحدة العقدية بين المغرب والمشرق، كان التواصل بينهم عن طريق الحج أو الرحلات العلمية للشيوخ والفقهاء، فدخلت مصنفات صوفية إلى المغرب الأوسط أثرت على أفكار النساء المتصوفات وعلى الفكر العام لعامة المجتمع، نذكر أشهرها كتاب "قوت القلوب

[31]- ابن مرزوق: المصدر السابق، ص298.

[32] - حسن علي حسن: المرجع السابق، ص 53.

[33] - أبو عبد الرحمن السلمي: الطبقات الصوفية، تح: أحمد الشرباصي، ط2، مصر، 1998، ص 9.

[34] - ابن قنفذ: أنس الفقير، ص ص 81، 80.

[35] - نفسه، ص 80.

[36]- ابن مرزوق: المناقب المرزوقية، ص156.

لأبي طالب محمد بن علي المكي (ت 3ه/ 9ه)، وكتاب إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي(ت505ه/ 1111م)، وكتاب الرعاية للحارث بن أسد المحاسبي(ت254ه/ 895م)[37].

وكان الفقهاء ينظرون إلى المرأة الصوفية بحذر واحتراز خاصة مجالس النساء وخروجهنّ، وشهادتهنّ التي تكون من خلال روايتين، ويتكون من خلالها الحكم على بعض القضايا[38] مما عزز نظرة الشك من طرف المتصوفة، ومع هذا، نالت المرأة الصوفية تقديرا وسط الحقل الصوفي، لأنها كانت مصدر ثقة المتصوفة حتى يأخذوا رواية الأخبار عنها.

وكانت النساء المتصوفات يمثلن القدوة لغيرهنّ من النساء، فكنّ يعملن ويكسبن قوت يومهنّ من عرق جبينهنّ، وذلك لتهذيب النفس والابتعاد عن التواكل، نذكر منهنّ زوجة أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن مرزوق، والتي كانت من الصالحات والثريّات وهذا ما ذكره ابن مرزوق حيث قال: أخبرني شيخها أبو العباس بن القطان أنها كانت ملازمة للعبادة مع زوجها مقتصرة على ما يقتصر عليه من القوت، متورعة على أكل طعام أبيها مباعدة لأهلها[39].

وعملت المؤمنة التلمسانية بغزل يديها[40]، والصالحة أم البنين جدة الفقيه أحمد بن أحمد البرزنسي المعروف بزروق الذي اهتم بطلب العلم، عمل بالتصوف والتوحيد، واشتغل في صناعة الخرز، كفلته أم البنين، إذ كان لها الدور الكبير في تكوين حفيدها[41].

وورد في فتاوى بعض فقهاء الدولة الزيانية كالعقباني بعض الأفعال التي كانت تقوم بها النسوة حيث قال " قلت وأما ما يقع في بلدنا ووطننا من اجتماعهنّ على احتفال أو تزيين، فيحلقن دائرة على رجل غير محرم يغنيهن ويطربهن، فمحرم اتفاقا، أعاذنا الله مما يردي فاعله في النار"[42].

زادت المصاهرة بين البيوتات الصوفية في ترسيخ هذا ظواهر التصوف والزهد، والتمسك بالورع والتعبد الذي كانت تعيشه في بيت والدها، وهذا ما زاد من عددهن وتشبثهنّ بالتصوف كمنهج وطريق في الحياة، وقد نهج النساء من العامة والخاصة، هذا المنهج وتمسكن بمنظومتهنّ الصوفية، وتعزيز الانتماء الروحي إلى الطريقة الصوفية التي عاشت

---

[37] - حاجي خليفة: كشف الظنون عن أسماء الكتب والفنون، مؤسسة التاريخ العربي، (د، ط)، لبنان، (د، س، ن)، ج2، ص ص 907، 908.

[38] -البرزلي: المصدر السابق، ج6، ص62.

[39] - ابن مرزوق: المناقب المرزوقية، ص 157.

[40] - ابن قنفذ: المصدر السابق، ص 80.

[41] - عبد المنعم القاسمي: المرجع السابق، ص63.

[42] - أبو عبد الله محمد بن أحمد بن قاسم بن سعيد العقباني التلمساني (ت 871هـ/1467م): تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر، تح: علي الشنوفي، ص 77، في: EXTRAIT DU BULLETIN. ORIENTALE DE L INSTITUT FRANçAIS DE DAMAS TOME XIX; 1967

وترعرعت عليها في بيت والدها[43]، أمثال الصالحة فاطمة بنت العالم أبي عبد الله محمد بن عبد العزيز، حفيدة العالم ابن صاحب الصلاة، وهي ممن أنجبتها البيوتات التلمسانية[44]، فعاشت البنت المتصوفة نفس الجو الروحاني الذي تركته عند أبيها، حيث نجد في مدينة تلمسان مصاهرة بيت بني النجار لبيت المرازقة، وبيت ابن صاحب الصلاة لبيت بني العزيز، وفي مدينة قسنطينة نجد مصاهرة بيت يعقوب بن يوسف الملاري لبيت ابن قنفذ[45].

ومن هنا أثرت البيوتات الصوفية على حركة النساء المتصوفات من خلال كونها راعية وحافظة للطريقة الصوفية الخاصة بأسرتها، فكان ثبات الوضع الروحاني للمتصوفة يعزز ميولها في توطيد روابط الدم، وخصوصا بين البيوتات التي تحمل نفس الطريقة مثل الطريقة المدينية والقادرية[46] والشاذلية[47]، فتكون بذلك عصبية قبلية على حد تعبير الطاهر بونابي[48].

رغم الثقافة العالية لمتصوفات المغرب الأوسط، وتأثيرهنّ على عامة الناس وخواصهم، إلا أننا نلاحظ عدم وجود ولو مدرسة واحدة تحمل اسم متصوفة، بالرغم من أنهنّ مارسن عملية التدريس والتعليم، ونهج ما تركه متصوفون رجال كعبد القادر الجيلاني، وأبي الحسن الشاذلي، وأبي مدين شعيب وغيرهم، وهذا راجع إلى أن من درسن وحضرن دروس المتصوفات كنّ من عامة النسوة.

واعتبر ذكر المرأة باسمها في مجتمع المغرب الأوسط من العيوب، ولو كانت ولية صالحة، أو عابدة ناسكة، فنظرة المجتمع للمتصوفات من وجهة النظر الفيسيولوجية والسيكولوجية لها نفس الممنوعات والمحظورات التي نص عليها الدين والعرف، ناهيك عن التعتيم التام في المصادر التاريخية عن ذكر صلتها بمعلّم أخذت عنه العلم، أو تلميذ تتلمذ

---

[43] - الطاهر بونابي: " ظاهرة التصوف النسائي في المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط"، مجلة البحوث التاريخية، المسيلة، الجزائر، ع: 1، مج: 1، 21مارس2017، ص 145.

[44] - ابن مرزوق: المناقب، ص8.

[45] - ابن قنفذ: المصدر السابق، ص 50. ينظر أيضا: الطاهر بونابي: ظاهرة التصوف النسائي، ص 145.

[46] - القادرية: وهي طريقة من الطرق الصوفية في المغرب الأوسط، تعتبر من أقدم الطرق الصوفية ظهورا، تأسست على يد الشيخ عبد القادر الجيلاني نسبة إلى جيلان من بلاد فارس التي ولد بها سنة (470 هـ/ 1077م)، ألف عبد القادر الجيلاني عدة تآليف، منها: الفتح الرباني والغنيمة لطالبي الحق وغيرهما. ينظر: صلاح مؤيد العقبي: الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر تاريخها ونشاطها، دار البراق، (د، ط)، لبنان، بيروت، 2002، ج1، ص 143.

[47]- الشاذلية: طريقة من الطرق الصوفية، يعود تاريخ تأسيسها إلى النصف الأول من القرن (7ه/ 13م)، مؤسسها الشيخ الحسن علي بن عبد الله بن عبد الجبار الشاذلي، المولود ببلدة غمارة بالمغرب الأقصى سنة (593ه/ 1819م)، ومنه وصل صيتها ومريدوها إلى المغرب الأوسط. ينظر: صلاح مؤيد العقبي: المرجع السابق، ج1، ص 149

[48] - الطاهر بونابي: ظاهرة التصوف النسائي، ص 145.

عليها، عكس الحال مع المتصوفين الرجال، فلم تتمكن من تكوين مدرسة أو طريقة خاصة بها[49].

وعن الأثر الثقافي المكتوب، لا نجد أثرا موثقا مكتوبا لمتصوفة من نساء المغرب الأوسط، إلا مدونة الصالحة عائشة بنت الفقيه أحمد بن الحسن التي نظمت كتاب الأدعية الصوفية[50].

والمرجح هنا أن النساء المتصوفات لم تكن لهنّ أوصاف فكرية وسلوكية مستقلة خاصة بالتصوف النسائي، وذلك لتأثير الرجل الصوفي الذي كان أبا أو أخا أو زوجا[51] .

ومن خلال هذا انبثقت ظاهرة التبرك على أضرحة الوليات الصالحات، ومنه شاعت زيارة الأضرحة، في مجتمع المغرب الإسلامي، حيث تقوم بها النسوة على اختلاف طبقاتهن الاجتماعية التي تعتقد بمقدرة الولية الصالحة أو الولي الصالح على تحقيق طلباتها، واقتداء بالمثل القائل "زوروا َتنوروا"، فانتشرت صفة التبرك بالضريح[52]. ونجد على سبيل المثال بتلمسان زيارة النسوة لسيدنا أبي مدين، ومن معه في عباد تلمسان.[53]

وتحدث الكتاني بأن لزيارة الصالحين فائدة كبيرة، فقال: " إذا ذكر الصالحون، نزلت الرحمة، وإذا تعذرت رؤيتهم ومصاحبتهم، فلا شيء أنفع للقلوب والنفس من سماع أحوالهم ومطالعة أخبارهم[54]، وزيارة قبور الأولياء ترياق نافع للقلوب، فإن بركة الصالحين جارية بعد مماتهم".[55]

وذكر في الأثر أن امرأة شريفة قصدت أحد الأولياء، فشكت إليه حالها وحال بناتها، فقدم لها المال الذي كان ينوي الحج به[56].

ونجد الولية الصالحة لالة مغنية بضواحي مدينة فاس، تقصد الفتيات العوانس ضريحها لتيسير تزويجهنّ، أو النساء اللواتي لا تلدن (العاقر)[57]، ونفس الظاهرة موجودة بالمغرب الأوسط، ففي قمة جبل بتلمسان ترقد لالة سيتي داخل ضريحها، الذي تزوره الفتيات اعتقادا

---

[49] - عزة جلال: "سيرة المتصوفات في التاريخ"، جمعية دراسات المرأة والحضارة، ع: 2، القاهرة، يونيو 2001، ص 84.

[50] - ابن مريم: البستان، ص 212. وينظر أيضا: أحمد بابا التنبكتي: المصدر السابق، ج2، ص 182.

[51] - الطاهر بونابي: ظاهرة التصوف النسائي، ص146.

[52]- نبيلة عبد الشكور: المرجع السابق، ج1، ص260.

[53]- ابن مرزوق: المسند، ص163.

[54]- الكتاني: المصدر السابق، ص13.

[55]- نفسه، ص15.

[56]- أبو عبد الله محمد بن علي الصباغ القلعي (عاش في ق: 10ه/ 16م): بستان الأزهار في مناقب زمزم الأبرار ومعدن الأنوار سيدي أحمد بن يوسف الراشيدي النسب والدار، ورقة 26أ- 26ب، رقم 1707 و1708، مخطوط المكتبة الوطنية الجزائرية، 114 ورقة.

[57] - نبيلة عبد الشكور: المرجع السابق، ج1، ص266.

منهنّ أن زيارة الضريح تساعد على زواج من لم تجد زوجا بعد، وتفرض الزيارة على الفتاة العانس إظهار بعض التضرع بعد عقد نية صافية لصاحبة الضريح[58].

ويلتجئ الناس بكثرة الخاصة منهم والعامة، على مسجد القرآن بتلمسان لوجود ضريح الصالحة العابدة السيدة غريبة للتبرك والاستشفاء بتراب قبرها، ونذكر أيضا الصالحة لالة رؤيا التي كانت لها كرامات، فيروى في الأثر على أنها تمتلك قوى لا تخضع لقوانين الطبيعة، فوصفت بأنها خارقة للعادة، ومن بينها قدرتها على شفاء المرضى خصوصا داء الصرع، الذي كان منتشرا في أوساط الأطفال[59]، وهذا ما كرس فكرة التبرك بضريحها لشفاء أطفالهم المرضى، وغيرها الكثير من الكرامات التي لم تذكرها المصادر، ولكن تنتشر بين أوساط الناس، وهو قدرتها على التنبؤ بالمستقبل[60].

ومن هنا تستمد المتصوفات نظرة الهيبة التي ترتكز تماما على نوع الكرامات التي حظين بها، فكن كما ذكرنا مستجابة الدعاء في حياتهن وبعد مماتهن، ويذكر في الأثر أيضا كرامة صعود النور من أضرحة البعض منهن كدلالة على الطهارة والصلاح.

وهنا نجد نوعا من التأثير النفسي على المجتمع من قبل المتصوفات في حياتهن، ويزداد هذا التأثير بعد مماتهن، لأن المتخيل يلعب دورا بارزا من خلال المرويات الشفوية، فتزداد رسوخها في ذهنية مجتمع المغرب الأوسط، ويكون لها مرونة كبيرة في تطويع مريديها لتعليمهم وتربيتهم الروحية، إلى جانب تقديم دور بارز اجتماعيا وسياسيا أحيانا.

خاتمة:

إن المرأة المتصوفة ساهمت بشكل كبير في نقل المعرفة الروحية والدينية، قصد تعليم أجيال المجتمعات الجديدة من خلال تأسيس الكتاتيب، والزوايا التي كانت بدورها أماكن للتعلم والتأمل، وحفظ القرآن الكريم، والحديث الشريف، كما كان لها الدور الهام في تعزيز المعارف، والقيم الإسلامية، وتوطيد الروابط الاجتماعية، من خلال قيادتهنّ الروحية، ودعمهنّ الاجتماعي، فأسهمن بشكل كبير في تشكيل الهوية الثقافية والدينية لمجتمع المغرب الأوسط، ونشر القيم الصوفية، ومساهمتهن في صون التراث الشفهي، من خلال نقل القصص والأشعار الصوفية والدينية، التي تعزز الفهم الروحي والإيمان العميق لدى أفراد المجتمع.

---

[58] - نفسه، ج1، ص265-266.

[59] - جمال الدين بوقلي حسن: ابن يوسف السنوسي في الذاكرة الشعبية وفي الواقع، منشورات الوطنية، (د، ط)، الجزائر، 1997، ص ص 5، 6.

[60]- برونشفيك: المرجع السابق، ج2، ص 177.